تأثير قادة المجتمع على السلام الاجتماعي في شمال سوريا

٣١ أغسطس ٢٠٢٣

تناقش **عرفه عبد الحميد الموسى** تأثير عقود من الممارسات الاستبدادية والصراع الدائر منذ عام ٢٠١١ على الهوية (الهويات) السورية. ويستند إلى نشاط بحثي أجري في ربيع عام ٢٠٢٣ مع ٢٠ شابة سورية نازحة في شمال غرب سوريا. تتضمن المقالة أيضا بعض التأملات الشخصية حيث تستخدم الكاتبة هويتها السورية الخاصة لاستكشاف آثار الصراع السوري على الهويات، وإمكانات الهويات لتعزيز السلام. وتدافع المؤلفة عن حماية الهوية السورية التي تشمل التنوع-على عكس الأسد أو مشاريع الاستيعاب الإسلامي-بدلا من حماية هوية سورية واحدة غير متسامحة مع أشكال التنوع الأخرى.

صورة المؤلف وسامر دبول من صور

تراجع متعدد الأوجه للهويات السورية

لم تأت صرخات الشباب السوري من العدم، بل نمت من القمع الدائم الذي رافق تطور الدولة السورية الحديثة منذ وصول حافظ الأسد إلى السلطة عام ١٩٧١. لأكثر من نصف عقد، عاش السوريون في بلد بلا رمز ولا إلهام ولا قيادة تتجاوز الظل المنتشر لنظام الأسد. وبدلا من ذلك، استخدم النظام سوريا لخدمة مشروعه، مما حد من تطوير مصادر المعرفة والفكر السياسي في المدارس والمناهج والمكتبات. من 'حديقة الأسد' إلى 'مكتبة الأسد' و 'مهرجان الأسد'، ارتبطت الاحتفالات والمعالم السورية بـ 'علامة الأسد'. أصبحت سوريا الأسد. إن كونك عضوا مخلصا في حزب البعث، وبالتالي في نظام الأسد، من شأنه أن يضمن وظيفة وفرص ترقية، وفي نهاية المطاف حياة آمنة وخالية من المتاعب. كما تم حمل الهوية السورية الرسمية في الهتافات التي رافقت الطفولة. عندما روجت هذه الأغاني إلى ما لا نهاية "لأمة عربية واحدة"، قامت أيضا بقمع هوية ثلث الشعب السوري الذي ينتمي إلى أعراق غير عربية. منع الأكراد والتركمان والسريانية، من بين آخرين، من الغناء بلغتهم، ولكن أيضا من استخدامها في المدارس وأماكن العمل والدوائر الحكومية. وبينما كان النظام يحدد بوضوح حدود الهوية السورية الرسمية، تقلصت الهوية الاجتماعية والثقافية للسوريين.

وكما أشار ياسر[1] مدير المركز الثقافي في مدينة إدلب، فإن مشكلة الهوية في سوريا لم تبدأ في عام ٢٠١١، بل في منتصف الثمانينيات عندما أصبحت أولوية المواطنين السوريين شراء الخبز بدلا من الكتب، بسبب فترة من انعدام الأمن الاقتصادي. ويضيف ياسر أن "حربا غير معلنة" بين المراكز الحضرية والأطراف الريفية شهدت الاستعاضة التدريجية للعادات الثقافية في الريف بالعادات المستوردة من المدينة:" هذا التطور جزء مما يسميه البعض الحضارة والتطور والأزياء، لكننا تمكنا من الاحتفاظ بطقوس مهمة مثل الأعراس والأعياد الدينية والاجتماعية". كان التلفزيون السوري متاحا بلهجة واحدة فقط وبث مسلسلات تقدم صورة نمطية للأشخاص الذين يعيشون في الريف. رجل إدلبي سيكون دائما شرطيا، وأولئك من المنطقة الشرقية من بدوي صادق وحلبي سيكونون أغنياء بلا كلل ويحبون الطبخ والنساء. احتكرت دمشق وحلب الأزياء الشعبية والأطباق والقصص والموروثات الثقافية، مما أدى إلى الشعور بالدونية لدى العديد من سكان الريف الذين كانوا يتظاهرون بأنهم من المدينة للحصول على مكانة مميزة لسكان المدينة.

[1] تم تعديل جميع الأسماء المذكورة في هذه المدونة لحماية الهوية.

من هذا القدر من القمع والاستيعاب القسري، رفع السوريون أصواتهم في بداية مارس ٢٠١١، وهتفوا:" الشعب يريد إسقاط النظام "؛ النظام الذي اختزلنا إلى أحد مشاريعه، وقتل هوياتنا المتعددة وصبغنا بلون واحد، ومحو معرفتنا بأنفسنا وتاريخنا. بدأت هتافات الاحتجاجات المدنية السلمية بأحلام لاستعادة قيادة السوريين وتنوعهم. في عام ٢٠١١، هتف السوريون "واحد، واحد، واحد، الشعب السوري واحد". لكن النظام قوبل هذه الهتافات بالطائفية والأسلحة الثقيلة وبدأت آلته الإعلامية ترسم التظاهرات بفرشاة الظلام والتدين الراديكالي. مع تحول الاحتجاجات إلى نزاع مسلح واسع النطاق، تغيرت أولويات السوريين أيضا. هربا من الموت على أيدي الجماعات المسلحة المتكاثرة، غادر السوريون منازلهم، أو في المقابل، قللوا من تحركاتهم اليومية. بالإضافة إلى ذلك، بدأ ظهور تيار ديني راديكالي تجسده عدة مجموعات مثل داعش أو جبهة النصرة في العبث بالتراث الثقافي والاجتماعي السوري. لقد فرضوا حكمهم وأفكارهم بقوة السلاح والاعتقالات والاختفاء القسري. لقد أصبحت هذه البيئة حقيقة واقعة للسوريين منذ أكثر من عقد من الزمان.

كان لهذا الفراغ الذي خلقه الصراع تأثير كبير على هوية الشباب السوري، الذي تعتبر سنواته الأولى حاسمة في تطوير الهوية والوعي الذاتي. كما ترك الصراع بصماته السلبية على الوجه الاجتماعي والاقتصادي للبلد؛ فقد خلق الفقر والتشرد والتوتر العرقي والديني ومشاكل اجتماعية أخرى. فشلت اتفاقيات السلام المزعومة في استعادة أي نوع من السلام، بل كانت صفقات بين النظام السوري وجماعات المعارضة. في الوقت الحاضر، يأتي السوريون فقط لارتداء ملابسهم التقليدية فيما يتعلق بالنزاع، وغالبا لتكريم الموتى. لم يعد يتم الاحتفال بحفلات الزفاف وتقتصر على الجلسات الصغيرة بدون طقوس. في واقعهم الجديد، يبقى السوريون بعيدا عن الأنظار ويبذلون قصارى جهدهم للذهاب دون أن يلاحظهم أحد ولا يثيروا الجدل؛ وهذا يشمل إسكات عاداتهم وتقاليدهم. وفقا لمحمد، الباحث والناشط، هناك عنصر آخر أضعف تدريجيا الهوية المحلية التقليدية في سوريا وهو الأفق الثقافي العالمي الجديد الذي أحدثته وسائل التواصل الاجتماعي: مع وسائل التواصل الاجتماعي، دخلت الأغاني والعادات الجديدة التي لا تنتمي إلى مجتمعنا إلى كل بيت سوري وأثرت على الشباب. يتم الاحتفال حفلات الزفاف على إيقاع سريع من هذه الموسيقى الجديدة التي هي مناسبة للرقص واستبدال الأغاني التقليدية والعادات الاجتماعية.

صالح، مدرس في واحده من مدارس مخيمات النازحين بالقرب من باب السلامة على الحدود السورية التركية، يشهد فقدان الذاكرة الذي يعاني منه الأطفال السوريون كل يوم. يقول: "سألت طالبة في المدرسة الإعدادية عن أصلها، فأجابت "مخيم الحرمين". بالطبع، تاريخ هذه الفتاة الصغيرة يسبق حياتها في المخيم لكنها لا تستطيع أن تثير أي ذكريات أخرى غير الهروب من التفجيرات، والعيش في خيمة، والانتقال من معسكر إلى آخر. في الواقع، الطفلة لا تعرف أنها من تل رفعت، المدينة القديمة التي كانت عاصمة الدولة الآرامية في القرن ٩ قبل الميلاد، واحدة من أكبر التلال في منطقة جبل سمعان. كانت تبلغ من العمر عامين فقط عندما بدأ الصراع. الآن بعد أن أصبحت في سن المراهقة، كل ما يمكن أن تتذكره هو الحرب.

أهمية الهوية في بلد في حالة حرب

استعدادا لهذه المدونة، جمعت ٢٠ شابة نازحة تعيش في محافظة إدلب في شمال غرب سوريا. وقد مثلوا معا جميع المحافظات السورية الـ ١٤. استمرت المناقشات لبضعة أيام وركزت على هويتهم الشخصية. عندما بدأنا المناقشة، ظهر اتجاهان. أولا، تذكر المشاركون اسم منطقتهم الأصلية فقط لأنهم سمعوا ذلك من أفراد أسرهم، ولكن هذا كل ما يعرفونه عن حياتهم قبل الصراع. تزايد في فوضى الحرب والانقسام السياسي منعهم من بناء ذاكرة وطنية شاملة. ثانيا، بالنسبة لهؤلاء الشابات، فإن مفهوم الوطن ضيق للغاية، ويقتصر على حدود مدنهن. لقد عبروا عن شعورهم بالضياع في بلد لا يعرفونه. ليس هذا فقط، لكنهم يقفون أمام أفق مسدود، أي نقص الفرص الاجتماعية والسياسية، مما يجعلهم غير قادرين على لعب أي دور نشط على المستوى الوطني. عدم وجود ماض وغياب مستقبل يجعلهم عالقين في الحاضر، غير قادرين على استعادة أي شعور بالمواطنة والانتماء في مجتمع مجزأ.

سرعان ما تطورت المناقشة حول الحاجة إلى تعزيز العلاقات مع 'الأعضاء المقربين' مثل الجيران أو الأشخاص الذين يتشاركون نفس الدين. كما أصر المشاركون على الحاجة إلى إيجاد سبل لتعزيز الحوار - من خلال جلسات شاملة على سبيل المثال – بين النازحين والمقيمين لتعزيز السلام الاجتماعي والهوية المشتركة. توصلنا إلى استنتاج مفاده أن الهوية هي نتيجة الانتماء، وذلك فقط عندما يفهم المرء ما يعنيه الانتماء، مرة واحدة يمكن أن تتخذ سلسلة من القرارات والإنجازات: لماذا أنا موجود؟ لهذا الغرض؟ بالنسبة لهؤلاء الشابات السوريات، يبدو أن البحث عن الهوية الشخصية هو البحث عن الوحدة الجماعية للانتماء: 'من خلال

التماسك الاجتماعي، يمكننا تحقيق الولاء وتعزيز انتمائنا لبعضنا البعض، وهو ما سينعكس في اعتزازنا الشخصي بهويتنا'. اتفق المشاركون بالإجماع على أن المكونات الرئيسية للهوية هي اللغة أو اللهجة، والأفكار، والثقافة، ونمط الحياة، وعدد من الخصائص النفسية والعاطفية والعقلية والسلوكية التي تحدد تفرد الفرد وتميزه عن الآخرين. وجادلوا بأن هذه الخصائص تظل في الغالب دون تغيير على الرغم من كل التطورات التي يمكن أن تحدث في الحياة.

خلال أحد الأنشطة، طلبت من الشابات وصف المحافظة التي يختارانها، مع التأكد من أن كل محافظة من المحافظات السورية الـ 14 سيتم وصفها من قبل مشاركة واحدة على الأقل. سرعان ما أدركنا أن كل محافظة كانت فريدة من نوعها بفضل أهم معالمها وطقوسها وعاداتها ولهجتها وشخصياتها المؤثرة. على سبيل المثال، يتم استخدام كلمات 'شوف' و 'دهاج' و 'عين' واطلع' في جميع أنحاء سوريا وكلها تعني 'نظرة'؛ بينما 'شو' و 'أشو' و 'شكون' و 'آش تبون' كلها تعني 'ما تريد'. في النهاية، أدركنا أن الشيء الوحيد الذي يوحدنا هو أننا شابات سوريات، ونعرف أننا ننتمي إلى سوريا. أكثر من ذلك، فإن وجود أشخاص من جميع أنحاء البلاد في منطقة جغرافية صغيرة واحدة – بسبب النزوح القسري – سمح للناس بالاختلاط والتعلم من بعضهم البعض وخلق هوية سورية جديدة. لقد رسمنا ملامح مصطلحات 'المواطنة' التي تشمل كلا من الهوية الشاملة المشتركة والهوية المحددة لكل منطقة وفرد. خلصنا إلى أن الشخص الذي ليس له هوية لا ينتمي، وبالتالي فهو غير موجود.

كيف ستبني الهوية السلام في سوريا؟

على مدى السنوات الماضية، قضى الصراع على سمات الهوية المشتركة والمحددة في جميع أنحاء سوريا. قتلت الحرب دور الأسرة وتحدت دور الكبار في تأمين الحاجات اليومية والضروريات الأساسية الأخرى، مما أدى إلى تدهور الهوية الاجتماعية والاقتصادية للعديد من السوريين عبر الأجيال. كما قتلت الحرب قصص الجدات وإرث الأجداد. بدلا من ذلك، أصبحت قصص النزوح رفيق كل مساء. أصبحت الهتافات والأغاني التي تمجد النظام أو المعارضة بديلا عن الهتافات الشعبية. حتى أغاني الحب التقليدية مثل "سكابا يا دموع العين" (دموع العيون، تتدفق بغزارة) تحولت إلى ترنيمة للشهداء. لذلك، يجب على السوريين حماية هوياتهم-العرقية والاجتماعية والاقتصادية والإقليمية والوطنية والمدنية-بدلا من هوية سورية واحدة غير متسامحة مع أشكال التنوع الأخرى. لا يمكن القيام بذلك إلا من خلال مراجعة المؤسسات التعليمية وتأثيرها الثقافي على الأطفال، وزيادة دور الوالدين في دعم هويات الأطفال.

ولا تزال مسألة تحديد الهوية المهيمنة التي ستسود بعد الصراع قائمة، ولا سيما بالنسبة للمجتمعات النازحة. وبصفتنا أشخاصا مشردين، نحاول أن نفكر كما يفكر المجتمع المضيف، بهدف دمج بيئتنا الجديدة. ولكن كيف سنعيد دمج مجتمعنا عندما نعود؟ هل ستعود المشاركات الشابات بهوية فرضت عليهن في إدلب، الرقة، أو حلب؟ أو سيعودون مع بلدهم، الهوية الفريدة التي طوروها خلال نزوحهم؟ ومساعدتهم على أن يصبحوا أكثر تسامحا تجاه الآخرين؟ بعبارات أخرى، لا يواجه النازحون السوريون السؤال فقط ' هل سأعود؟ 'ولكن أيضا الأسئلة:' ما سوف أعود إليه؟ وكا من سأعود؟

في الختام، إن الحفاظ على الهوية السورية وتطويرها مسألة مهمة وعاجلة ومسؤولية المجتمع بأسره، بدءا من الفرد، وانتهاء بالأسرة والمجتمع، وانتهاء بالمؤسسات الحكومية وغير الحكومية، بما في ذلك وسائل الإعلام التي يمكنها رفع الوعي الثقافي وتعزيز التسامح والتعايش السلمي. والأهم من ذلك، يجب أن تشجع هذه الشبكة من الجهات الفاعلة التفاعلات بين الأفراد والجماعات التي انقسمت بسبب أكثر من عقد من الصراع. فقط مثل هذه الجسور يمكنها إصلاح المجتمع السوري، وتعزيز التعاون والتفاهم المتبادل، والتغلب على الخلافات.

حول المدونة

تم تطوير هذه المدونة في إطار مشروع البحث ' السلام السوري: غير محلي، مفروض وغير شرعي؟ بقيادة الدكتورة جولين بوجوان في جامعة إدنبرة. ضمن هذا المشروع، قامت بوجوان وزملاؤها بتدريب عدد من الطلاب والمهنيين الشباب على البحث الأكاديمي ومهارات الكتابة بهدف تعزيز التمكين الذاتي للأصوات المحلية السورية.

نبذة عن الكاتب

عرفه فنانة ومدافعة عن حقوق المرأة نزحت بسبب الصراع السوري من مدينة سراقب إلى الشمال الغربي من البلاد. وهي مهتمة بالتحديات التي تواجهها الشابات السوريات وبناء الهوية في سوريا. عرفات هي المؤسس المشارك لمنتدى المرأة السورية ومؤسس الفريق الأزرق، الذي تعاونت معه (PeaceRep) في مشروع ' أداة فن من أجل السلام'.